مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

الحوار الدينى والتعددية الدينية

عند سيد حسين نصر

رمضان أحمد محمد حمد

باحث بقسم الفلسفة

كلية الآداب – جامعة أسيوط

DOI: 10.21608/QARTS.2022.158539.1499

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – العدد (٥٧) أكتوبر ٢٠٢٢

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

الحوار الدينى والتعددية الدينية عند سيد حسين نصر

الملخص:

التعددية الدينية في الفكر الإسلامي تعنى الاختلاف والتنوع، وليس الإيمان بوجود الاختلاف والتنوع يعني الرضا به، وإنما الاعتراف بوجوده وإمكانية العيش مع المخالف، واعتبار ذلك دلالة على صحة المجتمعات، فالاختلاف موجود في بنية هذا الكون، موجود في خلق الإنسان، وشكله ونوعه، ولونه، ولسانه، وفكره، وميوله، واهتماماته، وأهدافه، وكذلك في كل ما يدور حوله الإنسان من نواميس الكون، مما يجعل الاختلاف والتعدد أمرا مسلما به نظريا واقعيا. وقد كان الإسلام هو الدين الوحيد من الأديان العظمى الذى تواصل مع الغرب قبل العصر الحديث، وما يكاد يقرب من كل الأديان الأخرى وخاصة اليهودية والمسيحية فى الغرب والمناطق المركزية للإسلام مثل الزرادشتية والأديان القديمة فى إيران والعراق ومع الهندوسية فى الهند ومع البوذية فى شمال غرب إيران وأفغانستان.

الكلمات المفتاحية: التعددية، التنوع، الدين، الإسلام

أولًا: معنى الدين بين التراث ومدرسة الحكمة الخالدة:

يرى سيد نصر [1]إن الدين في علم أصول الكلام etymology هو الروابط التي تربط الإنسان بالإله، حيث يتعهد الدين الإنسان بطريقين: الأول بشرح طبيعة الكون ومعناه أو 'يصف طرائق الله للإنسان (وهذه نظرية العدالة الإلهية theodicy) والثانى بتوضيح دور الإنسان وغايته في الكون أو تعليمه كيف يحرر نفسه من قيوده وعوائقه ومخاوفه (وهذا مذهب الخلاص soteriology).

والدين في المقام الأول مبدأ للوحدة: حيث إن الله واحد، وهو غاية قصوى وأصيلة للكون والإنسان فيه، ومع ذلك انفصل الإنسان عن الله من خلال 'السقوط' في المسيحية و'الجهل' في الأديان الأرية الهندية، وبالتالى فإن الدين طريقٌ للعودة ومنهج للاتحاد، إنه مسار أسرارى ووسيلة للخلاص.(٢)

ويمكن اعتبار التراث بمعنى أكثر كلية بأنه يشمل المبادئ التي تربط الإنسان بالعالم السماوي وبالتالي التعمق في الدين, بينما يعتبر الدين بمعناه الأصيل من وجهة نظر أخرى علي أنه المبادئ التى تكشفها السماء والتي تلزم الإنسان بأصله, ويمكن اعتبار التراث فى هذه الحالة بمعنى أكثر خصوصية بأنه تطبيق لهذه المبادئ, ويتضمن حقائق فردية أسمى متجذرة فى طبيعة الحقيقة بما هى كما قيل، "التراث ليس أساطير عبثية عفا عليها الزمن, بل هو علم حقيقى متأصل بقوة" (٣), والتراث مثل الدين هو حقيقة وحضور فى آن، يتعلق بالموضوع الذى يعرف والذات التى تُعرف، ويأتي من المصدر الذي يأتي منه كل شيء، ويعود إليه, ومن ثم فهو يشمل كل شيء مثل" نفس الرحيم", الذى هو أصل الوجود ذاته بحسب أقوال الصوفية، ويرتبط التراث ارتباطا وثيقا بالوحي والدين, وبالمقدس وتصور مذهب الرشد والسلطة واستمرارية وانتظام نقل

المعرفة والبرانية والباطنية وكذلك الحياة الروحية والعلوم والفنون، وقد تنجلى وجهات النظر والفروق الدقيقة بمعناها بمجرد توضيح علاقة التراث بمثل هذه المفاهيم وغيرها من المقولات الأخرى ذات الصلة به (٤).

وإن كلمة الدين العربية وهى ربما أنسب كلمة لترجمة مصطلح التراث وهى لا تنفصل عن الحكمة الثابتة والباقية والحكمة sophia الخالدة التي تُحدد بالفلسفة الخالدة كما يفهمها كوماراسوامي.

وأعظم أمر عن الدين أنه ليس من صنع إنسان، فهو لم يخترعه إنسان بل موحى من الله، فلكل دين وحى متفرد وحقيقة لا نهائية، والوحى الإلهى هو شرط لا غنى عنه، فدونه لا يوجد دين، وما يصنعه الإنسان هو الأيديولوجية التي ليست ضامنة للحقيقة، وليست وسيلة أسرارية أو خلاصية.

والأمر الجوهرى التالى المهم هو التراث، فالدين بعد الوحى به ينتشر دون تغيير في الجوهر، وغالبًا ما يُدرس بتزيد في الإبانة – من جيل لأخر بقوة التراث، فيرتبط بالتراث ويكون سمة لمذهب الرشد الذى ينظر إليه باعتباره مبدأ الحقيقة والمستوى العملى وعصمة طهارة العقيدة. وخلاصة القول هو أن محتويات الدين تشتمل العقيدة والعبادة والأخلاق، وأن 'الوعاء' أو الإطار الذى لا غنى عنه للدين يشتمل الوحى والتراث ومذهب الرشد orthodoxy.(٥)

ومن الضرورة حتى نفهم معني التراث بشكل أفضل أن نناقش علاقته بالدين بشكل كامل, فإذا كان التراث مرتبطا لغويًا ومفهوميًا بالنقل فإن الدين بدوره يشير ضمنيا في جذر معناه "الإلزام" (كلمة الدين religare باللاتينية)(٦).والتراث كما ذُكر سابقا هو ما يربط الإنسان بالله، و في الوقت نفسه البشر بعضهم بعضا كأعضاء في

مجتمع واحد أو شعب مقدس أو ما يسميه الإسلام بالأمة, وبهذا المعني يمكن اعتبار الدين أصل التراث باعتباره البداية السماوية التي تظهر بالوحى مبادئ وحقائق بعينها تشكل تطبيقاتها عندئذ التراث، وكما أُشير من قبل تشمل المعني العام للتراث، هذا الأصل وفروعه وانتشاره, وبهذا المعني فإن مفهوم التراث هو مفهوم أكثر شمولية وعمومية باقترانه بالدين, حيث إن الاصطلاح العربي للدين يعني في آن التراث والدين بمعني أكثر شمولية وعمومية, في حين أن الدين بمفهومة الأوسع يفهمه البعض أنه يشمل تطبيق مبادئه الموحاة ويكشفها التاريخ اللاحق, بحيث تتبني بدورها ما يعنيه التراث رغم أن وجهة النظر التراثية ليست متوافقة مع وجهة النظر الدينية نتيجة لتدخل الحداثة والقوي المناهضة للتراث في عالم الدين نفسه.

أضف إلى ذلك فإن المعني الضيق الذي اكتسبه مصطلح الدين في اللغات الأوروبية جعل بعض المؤلفين التراثيون مثل رينيه جينو يقصّرون هذا المصطلح علي الديانات الغربية فحسب خاصة في تعبيراتهم الظاهرية التي تميزهم عن الهندوسية والطاوية وما يسمونه بالتراث بديلا عن الدين, و لكن لا توجد قيود من حيث المبدأ فى مصطلح الدين، ولا يوجد سبب لاستبعاد الهندوسية من فئة الدين، إذا كان هذا المصطلح الأخير يُفهم علي أنه ما يربط الإنسان بالأصل من خلال رسالة أو وحى أو تجلى يأتي من الحقيقة المطلقة.

ولقد أدي اقتصار الدين لمظاهره السطحية في تاريخ الغرب الحديث إلى استنفاد مصطلحات بعينها مثل الفن الدينى أو الأدب الدينى من الحس المقدس ، ومحوهما عن التراث الذى يعبر عن مبادىء النظام المتعالى، و ما يسمي حاليا بالفن الدينى أو والأدب الدينى وإلخ بعيدًا عن التراث أو حتى يناقضه فى كثير من حالاته , لذا أصبح من الضروري التمييز بين التراثى والدينى فى هذه السياقات، ولكن بمجرد

إحياء مصطلح الدين ليقصد به ما ينحدر من الأصل في تلك التجليات الذاتية للوجوس والذى يسمي الوحي في الديانات الإبراهيمية أو الأفاتارى الهابط في الهندوسية، ومن ثم يمكن أن يُرى بوصفه قلبًا ما يحتضنه هذا النظام الذى هو التراث، وبالطبع هذا الفهم للدين بكل جوانبه وكليته ممكنًا فحسب عندما تُحي وجهة النظر التراثية وينظر إلى الحقيقة منظور تراثى ومقدس لا دنيوى.

ومناقشة علاقة التراث بالدين يتطلب ضرورة الخوض في إشكالية تعدد الأديان, فتعدد صور الأديان يتضمن تعدد التراثات, وحين يتحدث المرء عن التراث الأولانى أو التراث بما هو بنفس الطريقة التي توجد بها حكمة خالدة واحدة، لكن هناك أديان عدة يمكن أن تجدها فى أشكال مختلفة، وهنا يواجه الإنسان بالضرورة سؤال أساسي متعلق بالتراث والتراثات، وهذا السؤال كتب عنه كثير وكان سببا فى كثير من سوء الفهم، ومن وجهة نظر بعينها لا يوجد سوي تراث واحد وهو التراث الأولانى وهو كائن دومًا، إنها الحقيقة الوحيدة التى هى قلب و أصل كل الحقائق, وكل التراثات تجليات أرضية للنماذج السماوية المرتبطة فى النهاية بالنموذج الثابت للتراث الأولانى بالطريقة نفسها التى يرتبط بها كل وحى باللوجوس أو الكلمة الذى كان فى البدء والتى هى مظهرًا للوجوس الكلى واللوجوس الكلى بما هو.

ومع هذا فإن كل تراث يقوم برسالة سماوية مباشرة وليس نتيجة لاستمرار التاريخية للتراث الأولانى, و لا يدين النبي أو الأفاتار بأي شيء لأي شخص سوي ما يتلقاه من الأصل، تحدثت حديثًا بعض الأوساط التنجيمية والباطنية الزائفة التى تدعى أنها مستودع لتراث أولانى على الأرض، وغالبا ما تحدد موقعها ببعض مناطق أسيا الوسطى ، وهى تدعى الاتصال بممثلي المركز (٧) لقد تجولت أفواج من الطامحين في جبال هندوكوش أو جبال الهيمالايا بحثا عن هذا المركز، و رُسم خيال علمى كامل

لجغرافيا مقدسة فُسرت بطريقة حرفية وليست رمزية, وتأكدت حقيقة التراث الأولانى و"المركز الأسمى" من وجهة نظر تراثية , ولكن هذا التأكيد لا يزيد أو يقضى بأى حال على الأصالة أو التأصيل الكامل لكل دين أو تراث يتوافق مع نموذج بعينه ويمثل تجليًا مباشرا من الأصل, مما يشير إلى تمزق فى البعد الأفقى والزمنى بالرأسى والمتعالى, وكل تراث لا يعارض تراثات أخرى، والحديث عن التراث لا يعنى رفض الأصل السماوي لأي دين من الأديان أو التراث الأصيل , ولكن تأكيد للمقدس فى كل رسالة سماوية أصيلة, مع البقاء على علم بأن التراث الأولانى الذى أكده كل تراث لا فى عقائده ورموزه فحسب بل بالحفاظ على " الحضور" الذى لا ينفصل عن المقدس.

وترى الفلسفة الخالدة الوحدانية فيما وراء تنوع صور الأديان وشعائرها، وهى حقيقة جوهرية تكمن فى قلب الأديان جميعا، وليست إلا الحكمة الخالدة ذاتها، ولا وجود لهذه الوحدانية فى نطاق الصور الظاهرية، ولا تقول الأديان كلها الشىء نفسه رغم اتفاقها المدهش على المبادئ والمذاهب والتشابه العميق بين تطبيقاتها، وتناقض 'مدرسة التراثيون' حركة توحيد الأديان العاطفية ecumenism التى ترى كل الأديان على وتيرة واحدة، وتخاطر باختزالها إلى العامل المشترك بينها أو إلغاء بعض تعاليمها الأساسية، ذلك على عكس التراثيون الذين يحترمون تفاصيل كل تراث منزل، ويعالجونه برفق وإجلال كما يعالجون كل تجليات المقدس، وينتبهون إلى البصيرة الروحية فى كل دين وفرادته، كما يتمسكون بأن هذه السمات برهان دامغ على الأصل المتعالى لحقيقة الدين ومثاله الربانى، وكذلك تبرهن على زيف الآراء التى تختزل الدين إلى التداول التاريخى والاقتباس من أديان سابقة ([8]).

والوحدانية التى يقصدها التراثيون هى وحدة متعالية فيما فوق وما وراء تجلياتها الظاهرة ويقبل أتباع هذه المدرسة النقد الأكاديمى الذى يناقض فكرة 'توحيد الأديان'،

فهى حركة نبعت أساسا فى الهند فيما بين العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين، ولكنهم يختلفون مع معظم الأكاديميين حول الدين، إذ يعتمد التراثيون فى العالم التراثى على حقيقة الدين وشعائره ورموزه التى لا يغير منها المجال الزمنى المكانى، فلكل صورة جوهر، ولكل ظاهر باطن، ولكل عارض جوهر قابل، ونلجأ إلى لغة الفلسفة التراثية الغربية التى تقدست بإعمالها عند ممثلى الفلسفة الخالدة فى العصر الوسيط اللاتينى، فقد ميز التراثيون حينها بين الصور الظاهرة للدين وجوهرها القابل الذى تصوره، أى العرَض والجوهر، ويرون أن الصور الظاهرة للدين 'عرضية' تنبثق عن جوهر وتعود إليه، ويبقى الجوهر مستقلا عن تجلياته، أى الصورة والجوهر، وينبغى البحث عن الوحدانية فى مستوى الجوهر الفاعل وفيما وراء اللوجوس، أو على مستوى الجوهر القابل الذى يعلو على كل طباق الكون من المقامات الملائكية حتى الطبيعية التى نشأ فيها دين فعَّال، ولو كان الأمر كما يقول الصوفيون" التوحيد واحد " فيمكن القول إن الوحدة المتعالية قد تأصَّلت فى تنوع الأديان، وليست إلا الواحد الفرد جل جلاله، ويحتكم كل دين على سمات متميزة لا يصح إهمالها ولا اللغو فيها.

ويمكن تمييز سمات كلية بعينها في كل دين في إطار خصوصيته وبنيته التراتبية، ففي قلب كل دين يكمن ما أسماه الشيخ عيسى نور الدين 'الدين الخالد religio perennis، والذى ينطوى على مذهب عن طبيعة الحقيقة، وعلى الطرق التى تؤدى إلى إدراك الحق، وتختلف اللغة المذهبية من دين إلى آخر، وتستطيع احتواء مفاهيم تتراوح بين 'الفراغ شونياتا' فى البوذية إلى 'يهوه' فى اليهودية، كما أن الطرق قد تختلف بأشكال عِدَّة تتراوح بين أضحيات الفيدا وبين الصلاة اليومية فى الإسلام، إلا أن الجوهر والغاية من المذهب لا تحول، وتبقى كلية فى كل دين.

ولا تضع 'مدرسة التراثيون' الأديان جنبا إلى جنب على طريقة بعض المداخلات الظواهرية التي تلجأ إلى جمع وتكويم ظواهر الدين دون اعتبار لأى معيار كما لو كانوا يجمعون قواقعا، أما الفلسفة الخالدة في 'مدرسة التراثيون' فتميز بين مراتب التجلي الرباني واختلاف مقامات النبوة والشرائع الربانية والطرق الكبرى والصغرى في دين واحد، وتحتكم على أبعاد ومعايير ودراسات عن الأديان في ضوء الحق ولا غير دون أن تقع في الذاتية، فهذا الحق فحسب هو الذى يسمح للدارس أن يفلت من سجن الذاتية والعقائد الشائعة للزمن الذى يعيش فيه، فهو الحق فوق فردى بطبيعته، وهو 'حكمةsophia ' كلية خالدة.

وتستطيع' مدرسة التراثيون' بفضل الحق المتمثل فى الفلسفة الخالدة أن تتحدث عن الزيف والصدق فى دين أو آخر كما تميز بين الحقائق الكبرى والصغرى، وهو السبب فى قدرة المدرسة على الحكم على ظاهرة دينية بعينها وعن الدين الأصيل والزائف دون تعصب أو إهمال للحق، وهما بديلان يحكمان مشهدا عريضا من عالم الدين فى العالم الحديث.

وقياسا على رؤية الحق بما هو فى الفلسفة الخالدة فإن المدرسة تميز بين الأديان الأصيلة والأديان الزائفة والتجليات الربانية الأخرى، وتنفذ فى كل عالم دينى لاستخراج معنى تعاليمه ومضاهاتها بتعاليم غيره من الأديان، شريطة ألا تنتهى إلى نسبية الحق الدينى، وأحد المعضلات الكبرى لإنسان اليوم فى عالم تقلَّصت فيه حدود التراث الطبيعى والدينى هى كيف تُدرسُ الأديان الأخرى بتعاطف دون فقدان حاسة المطلق لكلٍ فى دينه، وهو الأمر اللازم لحياة الأديان التى تعكس حقيقة أن الدين قد أتى من المطلق.

وتحرص ‘مدرسة التراثيون’ على أن تدرس الدين بتبتل، وأن تعارض كل نسبية تترى فى الدراسات الأكاديمية الحديثة للدين والمفاهيم الضيقة عن الحق التى ترى تجليا واحدا للحق على أنه الحق بما هو، وتحرص على المبدأ المنطقى الواضح الذى غالبا ما يهمَل، وهو أنه" لا مطلق إلا المطلق"، وكل ما عداه نسبى، كما أن هناك مبدأ بلوره الشيخ عيسى نور الدين لمتناقضة واضحة، ولكن لها مغزىً ميتافيزيقيا، وهى ‘المطلق النسبى’، ففى حين أن شمسنا هى الشمس بما هى فى نطاق المجموعة الشمسية، فإن نظرنا إليها من المجرات فهى مجرد شمس بين شموس أخرى، وقد أمكن الوعى بالشموس الأخرى بوسائل خلاف الوسائل الطبيعية للرؤية الإنسانية، تماما مثل الوعى ‘الوجودى’ بعوالم الأديان جميعا، ولم تجعل رؤية الشموس الأخرى شمسنا فى مركز غير مركزها من نظامنا الشمسى، وهى صانعة الحياة على كوكبنا، والرمز المباشر للبصيرة الربانية ونورها.

وقد ذكرت أن الكتابات التراثية استفاضت في تفسير الدين الخالد وهو ,الدين الضامن‘ للحقيقة الجوهرية ونعمة الخلاص التي في قلب كل وحى عظيم (وكل وحى عظيم هو غطاء من العناية الإلهية لقطاع بعينه من البشر) لأن العلاقة بين ’الدين الضامن‘ و’غطاءات العناية الإلهية‘ ضرورية لأى امرئ يرغب للوصول إلي هذا ’الدين الضامن‘ ليعتنق دينًا رشيدًا وتراثيًا بعينه ليؤمن ويفهم قضاياه المركزية (عقائده) ويشارك في طريق تقديسه (أسراره) ولا تعنى كلية المدرسة التراثية استبعاد الصور المقدسة التي أوحى بها الإله لخلاصنا، فلا يوجد طريق غيرها، فالتراثى يعى ببساطة أن اللاصورى يحتاج أن يكون مُمثلًا على الأرض بكثرة الصور والعكس استحالة.(9)

أما فيما تعلق بالدين بمعناه المركزي فإن أهم التحديات التي تواجه الإسلام لابد أن تستمر لكى تصير علمانيَة في كافة صورها من ناحية بما فيها من فلسفات الشك

والماديَة والطبيعيَة العلميَة scientistic naturalism رغم فقدان معنى الاصطلاح في الطبيعة الحديثة، ومن الناحية الأخرى تعددية الأديان أو توحيد الأديان، وكلما غاص العالم الإسلامي في حوار الحضارات وحوار الأديان على مستوى عام تظهر أهم الأدبيات التي تتناول وحدة الأديان وتنوعها في الفكر الإسلامي وكافة الموضوعات ما بين الميتافيزيقا إلى الأخلاق التي ترتبط بهذا الموضوع الفائق الأهمية، وسوف تُكمِّل كثافة الجدل بين المدارس الإسلاميَة وخاصة السنيَة والشيعيَة موضوع الحوار بين الأديان، وقد نشأت حركات لتحقيق اتفاق أوسع بين التفاسير الكبرى للإسلام إبان العقود الأخيرة، والأرجح أن تستمر وتنمو في المستقبل.(١٠)

ويرى سيد نصر أنَّ الأديان متعدّدة، لكنَّ التوحيد واحد؛ إذ "في قلب كلّ الأديان الأصيلة يوجد التوحيد"، بحسب تعبيره. والتعدُّديَّة لا تضعف الإسلام؛ بل تقوّيه. وهو لا يخفي انخراطه في التجربة التي دعا إليها المفكّر الألماني السويسري عيسى نور الدين في شكل "وحدة متعالية للأديان"، ١١ وهو توجُّه لا يخالف التوجُّه الكونيّ للقرآن الكريم الذي يتميَّز به من غيره من الكتب السماويَّة. و«كلّ ما على المسلم الصادق أن يقوم به اليوم هو العودة إلى رؤية القرآن العالميَّة؛ حيث مصطلح الإسلام نفسه لا يقتصر على الدّين الذي أُوحي به إلى النبيّ محمَّد، عليه السلام، الذي أطلق عليه اسم مسلم في القرآن. وأعتقد أنّ إبراز البُعد العالميّ للإسلام له أهمّيَّة خاصَّة في هذه الظرفيَّة التاريخيَّة، وأنَّ قدر الإسلام أن يحافظ على الدّين الأصيل ويحميه على المستوى العالميّ.وتجدر الإشارة، في الأخير، إلى أنَّ سيّد حسين نصر ينتقد الحداثة من موقع الاتّجاه التراثى (الفلسفي والصوفي أساساً) الذي لا ينكره؛ بل يدافع عنه توجُّهاً أصيلاً وبديلا للعلمويَّة والحداثة. وهذا لا يعني أنَّه يرفض العلم؛ بل إنَّه ينتقد العلمويَّة أساساً. إنَّه لا يرفض المنهج العلميَّ في ذاته؛ بل يرفض رؤية العالم التي

حصرت في منهج علميّ يلغي البُعد الإلهيَّ والروحانيَّ في الإنسان. وكذلك، هو لا يرى أنَّ كلَّ ما يوجد في التراث الإسلاميّ إيجابيّ؛ بل لا بدَّ من العمل على الاستفادة من العلم وتطوير الذات، مع استثمار المفاهيم الإسلاميَّة للعلم والعقل، على سبيل المثال، التي هي أوسع دلالة من مفهومهما الحديث (١٢)

ثانيًا: الحوار الدينيّ والتعدّديَّة الدّينيَّة

الحوار الديني: هو مناقشة اعتقادات الأطراف المتحاورة في ظل ما يجمعها من مشتركات شرط أن يكون منضبط بضوابط النقاش القائم على البرهان والمؤدي إلى تصحيح مفاهيم والرجوع عن متبنيات فكرية خاطئة بشأن تلك الاعتقادات التي هي مدار النقاش.

أما مصطلح (حوار الأديان) يشير إلى ما تعيشه الإنسانية من مشكلات فكرية وأخرى أخلاقية في الزمن الحالي تشكل عقبات أمام أتباع الأديان في التعايش السلمي مع بعضهم، لا سيما مع ما يشهده العالم اليوم من إقصاء للآخر وتطرف ومغالاة وكل يحاول أن يظهر تلك الأمور بمظهر ديني، وهذا يتطلب وقفة جادة من عقلاء ومرجعيات الأديان كافة خاصة الكبرى منها لبيان موقفها من هكذا إشكاليات، وهذا لا يتم إلا بالحوار الديني والوصول إلى خطاب ديني يضع الحلول للمشكلات الدينية المعاصرة بين أتباع الأديان المختلفة (١٣).

التعددية الدينية في الفكر الإسلامي تعنى الاختلاف والتنوع، وليس الإيمان بوجود الاختلاف والتنوع يعني الرضا به، وإنما الاعتراف بوجوده وإمكانية العيش مع المخالف، واعتبار ذلك دلالة على صحة المجتمعات، فالاختلاف موجود في بنية هذا الكون، موجود في خلق الإنسان، وشكله ونوعه، ولونه، ولسانه، وفكره، وميوله،

واهتماماته، وأهدافه، وكذلك في كل ما يدور حوله الإنسان من نواميس الكون، مما يجعل الاختلاف والتعدد أمرا مسلما به نظريا واقعيا.

والإسلام ذكر كل أنواع التباين والتعددية، فأقر الإسلام بوجود تعدد في المعبودات بين البشر، ولكنه دعا إلى الحق والصواب وأيده بالبرهان، ونقد الباطل وهدمه بالأدلة والبراهين، وليس كما أدعى محمد أركون في معالجته لموضوعة التساهل والتسامح التي تستشرف في دراسته مسألة التعددية – حيث يؤكد على حداثة هذا المفهوم وانقطاعة التام عن الموروث الإسلامي واعتباره وليدًا غربيًا بحتًا ليس فقط لم يؤمن به الإسلاميون، بل لم يكونوا ليتلمسوه في مخيالهم الفكري.(١٤١) وهذا مخالف لمنطوق النص القرآني والذي يمثل المنطلق الفكري عند علماء المسلمين، فالقرآن الكريم يثبت أن من الناس من عبد الإله الحق، ومنهم من عبد الشمس قال تعالى: "وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ" (١٥)

وتم التعايش بين الأديان المتعددة عمليًا تحت راية الإسلام، حيث انتقلت الفكرة من الناحية النظرية إلي التطبيق، وكانت بداية الانتقال من الفكر النظري إلى التطبيق العملي في المدينة المنورة، وكانت صحيفة المدينة خير شاهد على التعايش الحضاري بين الإسلام وأتباع الديانات الأخرى.(١٦)

يتعلق ازدياد الاهتمام بالصوفيَة أيضًا بالحاجة إلى حلول للتحديات التي يتعرض لها الإسلام، أي تعددية الأديان أو ما يدعى حاليًا 'توحيد الأديان'، وقد اهتم اللاهوت المسيحي الغربي بهذه المسائل طوال عدة أحقاب وضم طائفة كبيرة من اللاهوتيين والفلاسفة المسيحيين الغربيين سواءٌ أكانوا كاثوليكًا أم بروتستنت، والذين حاولوا إنتاج 'لاهوت توحيد الأديان' في سياق مسيحي، وربما كان القرآن الكريم أكثر

المتون المقدسة كليَة بمعنى التوكيد الصريح على أن الدين يبدأ من أصول الحال الإنسانيَة ذاتها، وأن الله جل جلاله قد أوحى بالدين للعالمين جميعًا، وأنه سبحانه قد أوحى بأديان متنوعة بتنوع أتباعها كي يتنافسوا في التقوى والفضيلة، وقد اهتم كثير من اللاهوتيين والفلاسفة طوال التاريخ الإسلامي اهتمامًا غامرًا بما يسمى حاليًا الدين المقارن أو Religionwissenschaft، وكان أسبقهم إلى ذلك صوفيون مثل ابن عربي وجلال الدين الرومي وغيرهم من الذين طرحوا معنى الكلية، والذين ألهموا في القرن العشرين في الغرب رجالًا مثل الشيخ عبد الواحد يحيى Rene Guenon والشيخ عيسى نورالدين Frithjof Schuon، والذين تناولوا وحدة التراث و'الوحدة المتعاليَة للأديان'، ويبقى على المتأخرين فى صور التراث الأخرى طرح الإنسانيات الراهنة من منظور القرآن الكريم وكليَة الوحى بالتفصيل.

ومسألة تعددية الأديان أحد المسائل التى نالت اهتمامًا واسعًا فى العالم الإسلامى اليوم، كما لفتت انتباه كثير من المفكرين المسلمين لعقد حوارات دينيَة مع المفكرين المسيحيين واليهود وكذلك مع الطاويين والهندوس والبوذيين والكونفوشيين وغيرهم، والأرجح أن يستمر هذا المنحى فى التوسع فى المستقبل ليجتذب عددًا أكبر من المفكرين الإسلاميين والجمع بينهم فى دوائر حوار، وتستلزم اهتمامًا عامًا بالميتافيزيقا الكلاسيكيَة التراثيَة والمعاصرة، وهى وحدها التى يمكن أن تقدم نسقًا لفهم تنوع الأديان بلا نسبيةٍ ولا تضحيةٍ 'بمعنى المطلق' الذى يكمن فى قلب العمليَة الفكريَة، ودونما ارتباط بأهداب الفكر التى تشكل عناصرها الرئيسية.(١٧)

ويقول سيد نصر فى حواره مع مؤسسة مؤمنون بلا حدود "إنَّ قابيل لم يقتل أخاه هابيل بسبب خلافات دينيَّة ولاهوتيَّة؛ ولا رمى إخوة يوسف أخاهم في البئر بسبب دينيّ. والهبوط يعني الهبوط من حالة الكمال في الجنَّة إلى حالة وجود ملأى بالصراع

والعدوان الأناني الذي عارضته جميع الأديان. لقد لُقّب المسيح بأمير السلام، والمسلمون واليهود يحيُّون بعضهم بعضاً بقول «السلام» أو «شالوم»، والهندوس ينطقون عبارة «شانتي»، التي تعني الشيء نفسه. غير أنَّ الدّين، عبر كلّ مراحل التاريخ البشريّ قبل ظهور الحداثة، كان العامل المركزيَّ في هويَّة الشعوب؛ حيث إنَّ كلَّ شيء يمارس باسمه، حتَّى لو كانت دوافع الفتنة دوافع عرقيَّة، ديموجرافيَّة، سياسيَّة، اقتصاديَّة، أو غير ذلك. بل حتَّى الحروب التي كانت تجري صراحة باسم الدّين مثل الحروب الصليبيَّة كانت تحرّكها دوافع أخرى في الغالب. حتَّى الفتوحات العربيَّة لم تتمَّ خارج حدود الجزيرة العربيَّة بغرض حمل الناس على اعتناق الإسلام بالقوَّة، وإلا فإنَّ الكثير من غير المسلمين ما عاشوا في دار الإسلام بعد الانتصار الكامل للمسلمين في كلّ العالم الذي أصبح يُسمَّى العالم العربيَّ، كما في بلاد فارس، حيث ظلَّ ما يقارب نصف السكان على الدّيانة الزرادشتيَّة، والمجوسيَّة بدرجة أقلّ، بعد ثلاثة قرون من الغزو العربي.

والدرس المهمُّ، الذي ينبغي أن نتذكَّره، أنَّ الكثيرين في أوربا، بعد حروب المئة عام بين الكاثوليك والبروتستانت، تخلّوا عن الدّين، وانتشرت العلمانيَّة أكثر. واعتقد كثيرون بأنَّ الدّين لمَّا كان سبب الحرب، فإنَّ تهميشه سيؤدّي إلى السلام. ولكن ما حدث هو أنَّه في القرنين التاسع عشر والعشرين، انخرط الأوربيُّون في حروب، ربَّما باستثناء الغزو المغولي، أدَّت إلى قتل أكبر عدد في تاريخ البشريَّة. وكان الفرق أنَّه الآن بدلاً من أن تُشنَّ الحروب باسم المسيحيَّة، صارت تتمُّ باسم الآلهة الجديدة مثل الأمَّة أو الحضارة الغربيَّة، وكلتاهما استخدمت غطاء للاستغلال الاقتصاديّ، أو باسم الإيديولوجيَّات العلمانيَّة الجديدة أو الديانات الزائفة مثل الشيوعيَّة والفاشيَّة أو الليبراليَّة العلمانيَّة.

وفي الظرفيَّة الراهنة من تاريخ البشريَّة، من الجوهريّ أن تحتفظ الأديان باستقلالها عن مصالح أتباعها العرقيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة، لا الاكتفاء بتعريف أنفسهم مع هذه المصالح فقط. وينبغي لجميع الأديان أن تدعو الناس إلى السلام والوئام بين الشعوب والأمم. وليس ثمَّة سلام ممكن، إذا لم يكن ثمَّة سلام بين البشر والشعوب. ولا يمكن تحقيق هذا السلام إلا إذا كان ثمَّة سلام بين الأديان وبين مختلف المذاهب داخل الدّين الواحد، سواء كانوا من الكاثوليك والبروتستانت في أيرلندا، والكرواتيّين الكاثوليك والأرثوذكس في صربيا، أم السنَّة والشيعة في العراق وسورية والجزيرة العربيَّة واليمن. فلكي يكون المرء في سلام على الأرض، يجب عليه أن يكون في سلام مع السماء"[١٨]

إن التواصل مع العالم الغربى الحديث الذى يعمل على تآكل تجانس منظور الدنيا فى الدين يسهِّل فى الآن ذاته التعرُّف على الأديان التراثية الأخرى، فإن إقامة حوار بين الإسلام والأديان الأخرى قد أصبح ضرورة مُلِحَّة، ولم يُظهر المسلمون حتى الآن اهتمامًا جادًا بدراسة الأديان الأخرى مثل المسيحية أو الهندوسية أو البوذية، وربما كان السبب هو حضور الأديان الأخرى كحقيقة مقبولة فى الإسلام قبل العصر الحديث، وقد كان الإسلام هو الدين الوحيد من الأديان العظمى الذى تواصل مع الغرب قبل العصر الحديث وما يكاد يقرب من كل الأديان الأخرى وخاصة اليهودية والمسيحية فى الغرب والمناطق المركزية للإسلام مثل الزرادشتية والأديان القديمة فى إيران والعراق ومع الهندوسية فى الهند ومع البوذية فى شمال غرب إيران وأفغانستان والتراث الصينى فى سينكيانج، كما أن مبدأ الكلية واضح فى القرآن الكريم، وقد تناوله حكماء مسلمون فى الزمن القديم مثل الرومى وابن عربى، ولذا كان أسهل للإسلام أن يقوم بدراسات متعاطفة مع الأديان الأخرى من حيث المبدأ بأكثر مما كان الحال فى الأديان التى تجد صعوبة فى قبول الأديان الأخرى من منظورها للعقائد المقبولة وبنيتها

الكلامية، إلا أن بعض الدراسات الجادة لأديان أخرى من منظور الإسلام فى الزمن الراهن قد بدأت فى الظهور، كما تناول بعضها الرسالة الباطنية فى الأديان الأخرى، وقد كان الجدل بين المسلمين والمسيحيين فى الشرق الأدنى قائمًا منذ القرن التاسع عشر الميلادى، وقد رافقه مشكلة تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨ مما جعل الدراسات الحميدة أشد عوصًا فى الشرق العربى الأدنى على الأقل، حيث انبثقت المجتمعات الدينية من صلب الدين الإبراهيمى وعاشت معا طوال عصور، وقد ذاق المسلمون المرارة ذاتها مع الهندوسية فى الهند ومناطق أخرى من شبه الجزيرة الهندية، إلا أن دراسة المسلمين للأديان الأخرى للأغراض السياسية تجيب على المسائل التى دفعت بها العَلمانية التى لا يمكن الإجابة عليها إلا بطرح الدين بما هو، وأفضل الطرائق للدفاع عن الإسلام وطبيعته المتكاملة هى الدفاع عن الدين الأولانى الحنيف الذى يكمن فى قلب الإسلام وفى مركز كل الأديان المنزَّلة.

وما من شك فى أن أداء كل هذه الواجبات لطرح الحكمة التراثية فى الإسلام المعاصر والرد على ترَّهات المستشرقين وتحدى الحداثة وتقارب الفروع الإسلامية تمثل عملًا مهولًا يستدعى تعبئة كل الموارد الفكرية فى العالم الإسلامى وتَشَارُكِها، كما يتطلب توكيد المبادئ الخالدة فى الإسلام فى إطار النسق التعليمى الغربى، وإحياء نظام تعليم إسلامى أصلى متجذر فى مدارس التراث والفروع التى امتدت منه فى النطاق الذى تحتله الحداثة بفكرانياتها ومناهجها، ولابد أن يكون أصيلًا وفى الآن ذاته معاصرًا ليواكب النظام التعليمى الراهن دون إهمال مجالاته، وألا يستسلم للنظريات الحديثة التى تدَّعى السيطرة عليه بل الحرى أن يهزمها فى مواطنها، وسوف تمتد فروع دوحة التعليم الإسلامى حتى تحتضن هذه النظم، وبغض النظر عن الحفاظ على الدين ذاته فليس هناك واجبٌ أشد إلحاحًا فى السياق الحالى للمجتمع الإسلامى من توكيد

المبادئ المعصومة فى الإسلام وتطبيقها على كافة مجالات المعرفة الحديثة والتعليم الحديث التى تدَّعيها الحداثة، وسوف تتحقق بمدى نجاح هذه المهمة الدرجة التى تستمر بها الحضارة فى واقعها كما فى اسمها.(19)

الهوامش:

[١] – **سيّد حسين نصر: فيلسوف مسلم معاصر، وُلِد عام ١٩٣٣ في طهران، من عائلة فارسيَّة عريقة في العلم. تلقّى تكويناً تقليديَّاً في بلاده قبل أن ينتقل إلى الدراسة في أمريكا، حيث تدرَّج في تخصُّصات تتراوح بين التكوين العلميّ الدقيق (الفيزياء والجيولوجيا والجيوفيزياء) وتاريخ العلوم والفلسفة والدراسات الإسلاميَّة. فهو ذو تكوين مزدوج علميّ وفلسفيّ من جهة، وإسلامي تقليديّ وغربيّ حديث من جهة أخرى. وقد كان لدي سانتيانا Di Santillana و رينيه جينو (Rene Guenon) « أثر كبير في مسار حياته الأكاديميَّة. عاد إلى بلده حيث اشتغل بالتدريس والبحث والإدارة في جامعة طهران، وساهم في إغناء الحياة الأكاديميَّة وتطويرها في إيران قبل الثورة. لكنَّه هاجر بعدها إلى أمريكا مرَّة أخرى، حيث استقرَّ به المقام، منذ عام ١٩٨٤، أستاذاً للدراسات الإسلاميَّة في جامعة جورج واشنطن، ورئيس مؤسَّسة تحمل اسمه متخصّصة في الدراسات التقليديَّة. وتجدر الإشارة إلى أنَّه يحظى بمكانة مهمَّة جدَّاً في الفلسفة المعاصرة، وخاصَّة في مجال تاريخ الأديان وفلسفة العلوم والميتافيزيقا والتصوُّف، وينتمي إلى ما يعرف، أو ما يسمّيه هو نفسه، المدرسة التقليديَّة. وسيّد حسين نصر غزير التأليف، وله تلامذة كثيرون، كما اشتهر من خلال المحاضرات العامَّة الكثيرة التي يلقيها في مختلف أرجاء العالم. نذكر من أعماله التي حظيت بعناية كبيرة ترجمة ودراسة: (ثلاثة حكماء مسلمين: ابن سينا، السهروردي، ابن عربي) (١٩٦٤)؛ (مدخل إلى العقائد الإسلاميَّة الكونية (إخوان الصفا والبيروني وابن سينا)) (١٩٦٤)؛ (العلم والحضارة في الإسلام) (١٩٦٨)؛ (اللقاء بين الإنسان والطبيعة: أزمة الإنسان المعاصر الروحيَّة) (١٩٦٨)؛ (مقالات صوفيَّة) (١٩٧٢)؛ (صدر الدين الشيرازي وفلسفته الإلهيَّة المتعالية) (١٩٧٧)؛ (الفنّ الإسلاميّ والروحانيَّة) (١٩٨٦)؛ (الإسلام التراثى في العالم المعاصر) (١٩٨٧)؛ (الدين ونظام الطبيعة) (١٩٩٦)؛ (الإسلام: الدّين والتاريخ والحضارة) (٢٠٠١)؛ (الفلسفة**

الإسلاميَّة من أصولها إلى اليوم: الفلسفة في أرض النبوَّة) (٢٠٠٦)؛ (الإسلام في العالم المعاصر) ٢٠١٢.

[2] - William Stoddart: Remembering in a World of Forgetting: Thoughts on Tradition and Postmodernism, The library of perennial philosophy, World Wisdom, Indiana ,2008.

[3] - F. Schuon: Understanding Islam, World Wisdom, Indiana, 1963,p30.

[4] - Seyyed Naser :knowledge and sacred , State University of New York Press, 1989, p81.

[5] - William Stoddart: Remembering in a World of Forgetting, op,cit, p

[٦] – الدين هو الذى يربط الإنسان بالسماء ويشاركه وجوده كله، اما بالنسبة لكلمة **tradition** فهى مرتبطة بحقيقة ظاهرية ومتشذرة أحيانًا، يربط الدين عند ميلاده الناس بالسماء من اللحظة الأولى للوحى، ولكن لا يصبح تراثًا، أو يعترف به تراثًا حتى جيلين أو ثلاثة **Schuon, Light on the Ancient Worlds Perennial Books, London, 1965 , German p. 144.**

[٧] –رينييه غينو، ملك العالم، ترجمة لطيف شنهى، دار خطوط وظلال للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٢٢، ص٥٠.

[8] - Seyyed Naser :knowledge and sacred, op, cit,p

[9] - - William Stoddart: Remembering in a World of Forgetting, op,cit,

[١٠] – سيد حسين نصر: وعثاء الإنسان فى العالم الحديث، دار آفاق، القاهرة، ٢٠١٩،

[11] - Seyyed Hossein Nasr: The Essential Seyyed Hossein Nasr, edited by William C. Chittick ; foreword by Huston Smith, World Wisdom, , Indiana ,2007.p 22.

[١٢] – المرجع نفسه، ص

[١٣] – محمد كبير: التعددية الدينية وحوار الأديان كمسلكية للعيش المشترك، مجلة الناصرية للدراسات الإجتماعية والتاريخية، مجلد ١٠، عددا جوان ٢٠١٩،٤١٢.

[١٤] – محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم؟ ، ط دار الطليعة،١٩٩٨، ص٢٢٩.

[١٥] – سورة النمل: آية ٢٤.

[١٦] – محروس محمد محروس: التعددية الدينية رؤية نقدية، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، السنة السادسة، العدد ١٢، ١٤٣٨هجرية، ص ٥٩.

[١٧] – سيد حسين نصر، وعثاء الإنسان فى العالم الحديث، مصدر سابق، ص ٤٦.

[١٨] – سيد نصر: حوار مؤمنون بلا حدود. اجرى الحوار عيسى جايلى، وترجمه سعيد سعيد البسكلاوى https://www.mominoun.com/articles/

[19] – سيد حسين نصر: الفكر والحياة الإسلامية،ترجمة عمر نور الدين، دار آفاق، ٢٠١٩، ص٥٠.

Abstract

Religious pluralism in Islamic thought means difference and diversity, and belief in the existence of difference and diversity does not mean contentment with it, but rather acknowledgment of its existence and the possibility of living with the violator, and considering this as a sign of the health of societies. His tongue, his thought, his inclinations, his interests, his goals, as well as everything that man revolves around from the laws of the universe, which makes difference and pluralism a given theoretically and realistically. Islam was the only religion of the great religions that communicated with the West before the modern era and almost all other religions, especially Judaism and Christianity in the West and the central areas of Islam such as Zoroastrianism and ancient religions in Iran and Iraq, with Hinduism in India and with Buddhism in northwest Iran and Afghanistan.

Keywords: pluralism, diversity, Islam, religion.